

الفصل السابع

دور الوثائق والمخطوطات فى الحياة السياسية بالمجتمعات الاسلامية (دراسة وتحقيق . وتعليق)

أولاً : الوثائق :

يمكن ان نقسم الوثائق الى مجموعتين الأولى وتشمل الوثائق الرسمية وهى تعنى كل ما يصدر عن الحكومات والهيئات الرسمية فى الدولة فيما يتعلق بالشئون الداخلية والخارجية ، وما يصرح به أفراد الحكومات وما يحمله مبعوثوها الى رؤساء الدول ، وما يلقيه مندوبوها فى المؤتمرات العامة والخاصة وما يوقعه رؤساؤها أو وزراء مسئولون فيها من اتفاقيات ومعاهدات مع غيرهم من حكومات الدول الأخرى .

ولأهمية الوثائق خصصت لها الدول دورا خاصة للحفاظ عليها وزودتها بالمتخصصين فى الخدمة المكتبية حتى تكون تحت تصرف الباحثين . ولكل فترة من فترات التاريخ وثائقها وأوراقها الرسمية ، ويقول الدكتور حسن عثمان : إن الوثائق فى المعنى العام تدل على كل الأصول التى تحتوى على معلومات تاريخية دون أن ينحصر ذلك فيما دون على الورق ، ولكنها فى المعنى الدقيق الذى اصطلح عليه الباحثون فى التاريخ هى الكتابات الرسمية مثل الأوامر والقرارات والفرامانات والمعاهدات والاتفاقيات والمراسلات السياسية .

أما المجموعة الثانية فتعنى الوثائق شبة الرسمية وهى بطبيعة الحال لا تقل أهمية عن الأولى ذلك أنها تتمثل فيما يكتبه الموظفون الرسميون فى الدولة .

وتشمل اوراق الدواوين وسجلاتها ، ومشاريع القوانين ، والقوانين المعمول بها فى

أقسام الدواوين المختلفة ، والمعاهدات ، والنصوص التي تصل الى الباحثين اما مكتوية أو منقوشة ، بلغاتها الاصلية أو خلال ترجمات لها ومضابط المجالس التشريعية المختلفة ، ومذكرات ويوميات ومراسلات الوزراء وأعضاء الحكومات ، وتصريحات الزعماء السياسيين ، ومؤتمراتهم الى غير ذلك مما يدخل في عداد الوثائق .

وإذا توفرت للباحث مثل هذه الوثائق استطاع أن يقدم دراسة علمية موثقة ، مدعمة بالأدلة التاريخية من مصادر أولية وعلى درجة عالية من الصحة اذا لم تتدخل أيدي الناقلين والناسخين فتغير من حقائقها أو تسقط بعضا من عباراتها مما يؤثر على الرواية التاريخية فيها والحدث التي تحتوية هذه الوثيقة أو تلك .

وثائق التاريخ الحديث كثيرة وفي متناول الباحثين ، ومن ثم فإن الدراسات التاريخية في مجال التاريخ الحديث متقدمة بشكل ملحوظ بينما نجد الدراسات في مجالات التاريخ الاخرى وان كانت تقدمت كثيرا في هذا القرن الا أن الوثائق ما تزال تحتاج الى الجهد الكبير والتعاون بين الباحثين للكشف عما تحتويه من معلومات وبيانات جديدة مما يساعد في ايضاح وتفسير كثير من الأحداث المختلفة التي تزال موضع جدل أو خلاف بين المؤرخين .

وعلى الرغم من التراث الاسلامي الضخم الذي بين ايدي الباحثين فإن كثيرا من الوثائق الاسلامية الهامة لم تصل الينا ، وربما يمكن ارجاع ذلك إلى سرعة حركة التاريخ الاسلامي واحداثه الكثيرة المتلاحقة وترامى الدولة الاسلامية ، وكثرة الدول المستقلة قياما وسقوطا مما ادى إلى ضياع ثروة علمية هائلة تمثلها وثائق العصور المختلفة التي تبددت أو ضاعت مع الأحداث الصاخبة المثيرة للتاريخ الاسلامي .

كذلك تعرضت بعض الدواوين التي كانت تحفظ فيها الوثائق الرسمية للحريق وذلك مثل ديوان الكوفة الذي تعرض لحريق اتى على كل ما فيه من وثائق واوراق رسمية

وذلك عام ٨٢ هـ / ٧٠١ م .

كما تعرض ديوان الفسقاط لحريق كبير كان سببا فى ضياع كثير من الاوراق الرسمية ، وضياع كثير من وثائق الأمويين فى اعقاب الثورة العباسية وكان الغزو المغولى لبغداد وراء ضياع اكبر ثروة وثائقية وعلمية لما تعرضت لها عاصمة العباسيين من تدمير وتخريب بكل دورها ومكتباتها وبقاويها .

ولحسن الحظ وصل الينا عدد من كتب النظم كما وصلت الى ايدى الباحثين بعض المستندات والوثائق التى تتعلق بالنظم الادارية ، ويشير بعضها الى النظم الاجتماعية وهى وان كانت قليلة الا ان اهميتها عظيمة فيما تقدمه للدارسين من صور تمثل جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمعات الاسلامية .

وتمثل البرديات ووثائق هامة فى تاريخ الحياة الاجتماعية والاقتصادية الاسلامية ويهتم الباحثون بالوثائق البردية اهتماما كبيرا وقد تم العثور على أوراق بردية هامة بالعربية والقبطية فى اقليم الفيوم وهى تتضمن معلومات وبيانات هامة عن الادارة فى مصر وعصر الولاة ، والحياة الاجتماعية فى مصر الاسلامية .

ويركز الباحثون الآن جهودهم من أجل ترتيب وتنسيق هذه الوثائق لاهميتها القصوى فى الدراسة التاريخية ذلك انها تمثل صورة صادقة للنظم المالية والادارية والاجتماعية للعصور التى كتبت فيها .

ومن الاكتشافات الهامة العثور على أوراق الجنيزا Genizas التى عثر عليها فى غرفة ملحقة بالمعبد اليهودى بالفسطاط ، والتى كان الكشف الحقيقى لها فى عام ١٨٩٠ م حيث تناقلتها ايدى المستشرقين وباعة المخطوطات فى القاهرة ومن ثم وصلت اجزاء كثيرة منها الى مكتبات أوروبا وأمريكا .

كان اكبر مجموعة من الوثائق الجنزية Genizas Documents هى التى

وصلت الى مكتبه البودليان باكسفورد Bodelian Library والتي باعها الى
الحاخام اليهودى " حاخام القدس " سليمان ورثيمر كما ان هناك مجموعة كبيرة ايضا
منها وصلت الى فيلادلفيا وثالثة تمتلكها المكتبة العامة فى لنجراد .

اما أهم مجموعة على الاطلاق فهى ما استطاع الرحالة الانجليزى ايلكان أدلر
Elkan Adler ان يحصل عليه خلال زيارته لحجرة الجنيزا فى الفسطاط وكان ذلك
فى يناير عام ١٨٩٦ م ، وهذه المجموعة توجد الآن فى مكتبة معهد اللاهوت اليهودى
فى نيويورك .

ويقول المستشرق اليهودى جويتين أن الوثائق الهامة التى تمثلها الجنيزا قد بيعت
علنا بعد الحصول عليها من مقابر البساتين فى القاهرة وذلك عام ١٩٠٨ م .

وقد أدى هذا بالاضافة الى ماسبق ان تعرضت له الوثائق من بيع وشراء الى
تفرقتها فى مكتبات أوروبا وأمريكا .

ووثائق الجنيزا تقدم صور صادقة للحياة بل الحياة اليومية للمجتمع اليهودى فى
القاهرة بما تلقيه من كثير من الضوء على الحياة الاجتماعية والاقتصادية لطائفة من
طوائف المجتمع المصرى .

وعلى الرغم من تعرض هذه المجموعة من الوثائق للتلف ، فإن فيها وثائق كثيرة
فى حالة جيدة ، ويصف صاحب دراسة فى مجتمع البحر الابيض المتوسط المستشرق
اليهودى جويتين Gaïton خطابا حفظ ضمن أوراق الجنيزا أرسل من اليمن الى
الهند، ووصل هذا الخطاب الى مصر ليستقر فى هذه المجموعة الوثائقية ورغم الرطوبة
وطول الرحلة الزمنية التى قضاهها الخطاب فقد بلغت ثمنائة عام اذا أرسل عام
١١٤٩م فانه لا يزال فى حالة جيدة وخطة واضح مقروء .

ولا تزال الدراسات فى هذا المجال تسير بنشاط حتى تتيح مصادر جديدة لدراسة
التاريخ الاقتصادى والاجتماعى لفترة من فترات التاريخ المصرى والاسلامى .

المخطوطات :

وللمخطوطات أهمية عظيمة في الدراسات التاريخية إذ أنها تمثل التراث المكتوب وتغطي المخطوطات العربية وغير العربية مجالات شتى من مجالات المعرفة وتحظى المخطوطات الخاصة بالتاريخ باهتمام كبير ، ومع ذلك فهي لاتزال تحتاج الى اهتمام اكبر من العلماء والباحثين لتقدم فى شكل يمكنهم من الافادة بها وهذا يسمى اصطلاحا بتحقيق المخطوطات .

وتحقيق المخطوطات من الدراسات الشاقة التى تتطلب صبورا ودراسة وخبرة ودراية بأنواع الخطوط وأساليب النساخ على مختلف العصور . وهناك دراسات خاصة بهذا من أهمها ماقدمه الاستاذ عبد السلام هارون بعنوان تحقيق النصوص ونشرها وفيه يبين الخطوات التى يجب أن يتبعها الباحث فى تحقيق ونشر مخطوط .

ولما كانت المخطوطات العربية تنتشر فى مكتبات الدنيا ، فعلى الباحث الذى يود فى تحقيق مخطوط بعينة ان يتحقق من وجود نسخة وحيدة للمخطوط موضوع الدراسة او أن له عدة نسخ فعليه فى هذه الحالة الحصول عليها جميعا ليختار أصلها أصلا للتحقيق .

أما فى حالة كون المخطوط واحداً فسيكون هذا هو أصل للتحقيق ، واما اذا كانت له صور أو نسخ مختلفه فعليه أن يختار أكمل وأحسن المخطوطات وأقدمها ان امكن وأقربها الى العصر الذى تعالجه لتكون المخطوطة الأم أو الأصل الأول للتحقيق .

ثم عليه أن يتأكد من نوع الورق ونوع الحبر والخط وهناك وسائل كثيرة تعينه على ذلك كما ان هناك خبراء فى الخط ومعرفة عمر المخطوط ثم يبدأ بعد ذلك فى قراءة النص وضبطه واعاداه للنشر . وهو فى ذلك يستعين بالمصادر المعاصرة التى أفاد مؤلفوها من تلك المخطوطة .

وبعد ان يعايش النص ويدرس عصره ومؤلفه ويرى مؤلفاته إن كان كتب غير ذلك المخطوط لتزداد معرفته بأسلوبه وطريقته ، ثم بعد ذلك يمكن له أن يهيب مخطوطه ويعدده للنشر .

ومن واجب كل مؤرخ أن يهتم بالمخطوطات وأن يعمل على نشرها وذلك اسهاما فى نشر التراث المكتوب وجعله فى متناول الدارسين باعتبار ان المخطوطات لها من الأهمية وخاصة المعاصرة للأحداث ما يضيف قيمة علمية هامة على الابحاث والدراسات التاريخية وسوف نتناول بالدراسة لنموذج من العلماء والمؤرخين المسلمين الذين أثروا الحياة الاجتماعية والسياسية فى الوطن العربى وهو سبط الماردينى ثم نتناول دراسة احدى المخطوطات وتحقيقتها والتعليق عليها وهى بعنوان آداب الملوك وقد كتب هذه المخطوطة الملوك برد بك فى عهد السلطان قنصوة الغورى ١٥٠١ - ١٥١٦ م .

من الفكر الإسلامى الوسيط

دراسة ، تحقيق وتعليق

(١) بدر الدين محمد بن محمد بن احمد شمس الدين الغزال الدمشقى

الشهير بسبط الماردىنى

حياته وعصره :

سبط الماردىنى ، دمشقى (١) الأصل ، شافعى ، أمه فاطمة ، ويعرف بالماردانى (نسبة لجامع الماردانى) ولد فى ليلة رابع عشر ذى القعدة سنة ست وعشرين وثمانمائة للهجرة بالقاهرة ونشأ بها فحفظ القرآن ، وجوده على امام الأزهر بل تلاه عليه ببعض الروايات .

أما صاحب (٢) البدر الطالع فيصف حياة الماردانى بايجاز بأنه ولد سنة ٨٢٦ هجرية بالقاهرة ونشأ بها وأخذ عن القلقشندى وابن المجد والمحلّى والبلىقنى وابن حجر والمرانى ، ودخل الشام والقدس وحماة وحج وجاور واشتهر بالذكاء وتصدى للأقراء ، وانتفع به الناس فى الفرائض والحساب والميقات والعربية وغير ذلك .

ويترجم خير الدين (٣) الرزكى لعالمنا الماردىنى قائلاً انه عالم بالفلك والرياضيات . اصله من دمشق . ومولده ووفاته بالقاهرة - كان موقنا بالجامع الأزهر .

والواقع ان سبط الماردىنى لم يلق ذبوع الصيت الذى برز فيه مؤرخو مصر والشام

(١) السخاوى ، م . س . ذ ، ص ٣٥ ، حيث يختلف فى تاريخ مولده مع بعض المصادر الاخرى "الباحث"

(٢) محمد على الشوكانى (القاضى ، العلامة ، شيخ الاسلام) (ت ١٢٥٠ هـ) البدر الطالع من بعد القرن السابع ، الطبعة الاولى ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ ، وكان الشوكانى قاضيا وترجم للماردانى بأنه دمشقى الأصل ، قاهرى ، سبط الجمال عيد الله الماردانى .

(٣) خير الدين الرزكى ، الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، الجزء السابع ، الطبعة الثالثة ، بدون بيانات نشر ، ص ٢٨٢ .

- على سبيل المثال - ففي مصر برز أئمة وعلماء ومؤرخون مثل المقرئى والعينى وابن حجر وابو المحاسن ابن تفرى بردى (١) وعلى ابن داود الجوهري ، وجمال الدين السيوطى - وهو غريم شمس الدين السخاوى - ومن بعدهم أبى اياس ، وفى الشام كان مؤرخو الشام موزعى النشاط بين عدد من المدن الشامية ، وقد استأثرت دمشق بالنصيب الاوفر منهم (٢) ، وخاصة فى الفترة السابقة على الماردينى وكان نصفهم تقريبا من المحدثين والفقهاء ، وقد قدر عددهم بخمسة وثمانين أو يزيد ، وكانت بيئة الشام منسجمة تماما مع واقع الحياة الفكرية الاسلامية وحتى القرن السابع الهجرى تألق علماء ومؤرخون ومن ابرزهم ابن عساكر وابن ابى طى والرازى والمقدسى القيسرانى والعظمى والعماد الاصفهانى وابن شاهنشاه والمقدسى الدمشقى وياقوت الحموى وابن نظيف وسبط ابن الجوزى وابو شامه . وهذا الفيض من العلماء والمؤرخين فى مصر والشام ليس كل شىء وليسوا كل الاسماء فثمة من بعدهم جمهور ، اما عالما الماردينى .. عالم الفلك والرياضيات فقد كتب ايضا فى الميقات مقدمات وعمل عمتا فى الفرائض سماه كشف الفرائض وشرحه وشرح بعض مصنفات ابن الهائم وشرح الالفية والجعبرية والرحبية وله فى الحساب الحاوى واللمع ، وفى الجبر والمقابلة

(١) وهو ابو المحاسن بن تفرى بردى (١٤١١ - ١٤٧٠ م) ومن مؤلفاته النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الدليل الشافى على النهل الصافى ، حوادث الدهور فى مدى الايام والشهور ، الرياضيات والموسيقى ، السكر الفاضح (وتوجد نسخة خطية من هذا الكتاب فى مكتبة الاسكوريال تحت رقم ٣٦٧ .

راجع محمد مصطفى زيادة ، (م . س . ٦٠) من ص ٢٤ - ٣٥ .

(٢) شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، دراسة فى تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله فى الاسلام ، الجزء الثالث ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٩ ص ٢١٧ - ٢٢٥ .

مصنفات وفى النحو وشرح الدور والنظر والتوضيح (١)

لقد شهد عصر الماردينى محافظة بلاد الشام على وحدتها مع لانها للسلطان المملوكى فى القاهرة طوعا واختيارا ، وبقي هذا الولا حتى اواخر عهد الدولة المملوكية وليس أدل على هدوء بلاد الشام التام فى تلك الفترة من رحلة الملك الاشرف قايتباى الى بلاد الشام بدون حراسة سنة ٨٨٢ هـ / ١٤٧٧م - وكان سبط الماردينى يبلغ من العمر حوالى اربعة وخمسين عاما وكان الناس يتسابقون الى تحيته حيثما حل (٢) . وسواء تعلق الامر بمدرستى مصر او الشام فى فترة سبط الماردينى (١٤٢٣ - ١٥٠٦م) قبل انتهاء عصر سلاطين المماليك ، وفى بداية الحكم العثمانى ، فقد حفلت هذه الفترة بنشاط الحركة العلمية نشاطا فريدا ، فما من فن من فنون المعرفة أو لون من ألوان الثقافة الا طرقه وعالجه علماء ذلك العصر . الامر الذى يشهد عليه التراث الضخم من المؤلفات والكتب الذى خلفه لنا عصر سلاطين المماليك والذى لم ينشر منه سوى القليل فى حين مازالت غالبية مخزوننا فى صورته الحالية وموزعا بين دور الكتب فى العالم . على ان المتأمل فى ذلك التراث العلمى الذى خلفه سبط الماردينى لابد وان تسترعى نظره حقيقة هامة هى ان مؤلفاته المخطوطة والمطبوعة تعتبر بمثابة موسوعة

(١) القاضى العلامة شيخ الاسلام محمد بن على الشوكانى ، البدر الطالع من بعد القرن السابع ، (ترجمة رقم ٤٩٨ ، مرجع سبق ذكره ص ٢٤٢ .

(٢) راجع : محمد ابراهيم الطيبى ، القول المستظرف فى رحلة الملك الاشرف ، مخطوطة رقم ١١٠ ، دار الكتب بالقاهرة .

- اكرم حسن العلبى ، نيابة دمشق فى نهاية عهد المماليك « عهد سيبائى » ، رسالة ماجستير ، « غير منشورة » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٥ - ٧ .
- دكتور محمد نصر مهنا ، اداب الملوك ، كتبه الملوك بريدك من طبقة المستجده الملكى الاشقى ، « دراسة وتحقيق وتعليق » مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

جمعت فأوتت ، فمن كتبه تحفة الاحباب فى علم الحساب - مخطوطة - ، وجداول رسم المنحرفات على الحيطان - مخطوطة فى الميقات ، و « حاوى المختصرات فى العمل بربع المقنطرات » - مخطوطة - فلك و " شرح الرحيبة - مخطوطة " ، فرائض و تعليق مختصر على لامية ابن الهانم فى الجبر والمقابلة - مخطوطة (١) - و " دقائق الحقائق فى حساب الدرج والدقائق - مخطوطة « فلك » و " الدر المنثور فى العمل بربع الدستور - مخطوطة " فلك ، و " الرسالة الفتحية فى الاعمال الجيبية - مطبوعة " فلك و " المواهب السنيه فى احكام الوصية - مخطوطة « فقه » و « القول المبدع فى شرح المقنع - مخطوطة " فى الجبر والمقابلة " و " كفاية القنوع فى العمل بالربع المقطوع - مخطوطة « و « كشف الفوارض - مخطوطة " فى الفرائض " و " شرحه " ارشاد الفاراض الى كشف الغوامض مخطوطة « و " اللمعة الشمسية - مخطوطة " فى " الفرائض " ، و لفظ الجواهر فى تحديد الخطوط والدوائر - مطبوع " و " هداية السائل الى الربع الكامل - مخطوطة « و « قررة العين - مخطوطة « فرائض و ترتيب مجموع الطلائى - مخطوطة « فى الفرائض ، و « شرح قول ابن الهانم - مخطوطة « (٢)

(١) خير الدين الزركلى ، الاعلام ، م.س.د. ، ص ٢٨٢ ، حيث ذكر انه يحتفظ لديه بهذه المخطوطة.
(٢) خير الدين الزركلى ، ص ٢٨٢ . حيث يكمن الجهد الخلاق للمؤلف تعريفه للاماكن الموجودة فيها هذه المخطوطات والمطبوعات وهى على النحو الآتى : البدر الطالع ٢ : ٢٤٢ وعرفه بسبب الماردانى « ولم يذكر وفاته . ومثله الضؤ اللامع ٩ : ٣٥ و زاد مصححه : « الماردانى » نسبة الى جامع الماردانى و يذكر الزركلى ان الماردانى كان يعرف نفسه بسبب الماردانى ، كما هو بخطه ، وكذا ورد ذكره فى اجازات بخط الشنشورى وغيره . والكتبخانه ٢٠٨.٢ و ٢١٦ ثم ١٧٩:٥ و ٢٢٨ و ٢٤٣ و ٢٤٧ و ٢٦٢ و ٢٦٤ و ٢٦٦ ثم ١٩٧:٧ و خزائن الكتب ٤٠ و ٩٠ والصادقية ، الرابع فى الزيتونه ٣٩٥ وفهرس المؤلفين ٢٦١ ومجلة المجمع العلمى العربى ٢٨ : ٤٣٠ و 216:2(167),2.S, 311,329,558,484: princeton

ونشرة دار الكتب ١ : ٣٥٩ .

والواقع انه بالرغم من صعوبة تتبع كافة الاضواء التي تلقيها هذه المخطوطات والمطبوعات لسبب المارديني ، الا اننا نلمس أن هذا العالم الاسلامى قد تطرق الى العديد من فروع المعرفة فضلا عن أن الباحث المعاصر يجدها بمثابة موسوعة تجمع بين الفلك والرياضيات والفقه والفرائض والنحو والميقات واللغة العربية ما ينهض دليلا على غزارة مادته وتنوعها وسعة أفقه .

وازاء هذا الانجاز الجاد والحركة العلمية الدائمة كان من الطبيعى ان يترجم له شمس السخاوى مؤرخ القرن التاسع الهجرى المتميز الذى استطاع ان يثرى الفكر التاريخى (١) قائلا :

أنه - أى المارديني - قد اخذ عن ابن المجدى الفرائض والحساب والميقات ولازم دروسه وكذا لازم العلاء القلقشندى (٢) فى الفرائض والفقه ومما اخذ عنه الفصول لابن الهائم ، وتقسيم الحاوى وبهجته والمنهاج والمهذب بل وقرأ عليه البخارى والترمذى

(١) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى ، الضو اللامع ، م.س.ذ (ترجمة ٩٤) ص ٣٥
(٢) أبو العباس احمد القلقشندى ، صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، والقلقشندى أشهر من ان يعرف ، وقد طبع الكتاب فى القاهرة فى اربعة عشر مجلدا بين ١٩١٣ ، ١٩١٨ . واستعرض القلقشندى أوضاع مصر فى العصور الوسطى فى كتابه أوضاع مصر منذ الفتح الاسلامى فى القرن السابع الميلادى حتى اياه فى أوائل القرن الخامس عشر للميلاد ، والواقع انه فيما يتعلق بأوضاع مصر فى العصور الوسطى فإنه يصعب تتبع كافة الاضواء التى يلقيها كتاب صبح الاعش ، غير أن اهمية هذا الكتاب من وجهة نظر المؤرخ والباحث المعاصر تكمن فيما عرضه القلقشندى لنظم الحكم والادارة والحياة الاقتصادية والحياة الاجتماعية والسياسة الخارجية . ولزيد من التفصيل راجع : دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المملوكى فى مصر والشام ، الطبعة الاولى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٣٢٩ وما بعدها .
والحق ان كتاب صبح الاعش هو فى حقيقته موسوعة علمية ضخمة وان ما تحويه مجلداته من مادة غزيرة اعظم من ان يحيط بها فرد واحد مهما بلغت سعة علمه « الباحث » .

وغيرهما وحضر أيضا دروس الفياتى والبوتيجى والمحلى والعلم البلقينى والشروانى
والخواص وقرأ فى العربية على الكريم العقبى .

ويستطرد السخاوى استكمال الترجمة (١) « لسبط الماردينى » مضيفا انه سمع
على الصالحى والرشيدي وغيرهم بالقاهرة وابى فتح المراغى بمكة وشمس الدين بن
الفقيه حسن بدمياط و اخرين ، وكان اول اشتغاله سنة تسع وثلاثين ، وحج غير مرة ،
وجاور فى الرجبية المزهرية ، وزار بيت المقدس غير مرة أنفا ، منها فى سنة تسعين مع
أبى البقاء بن الجيعان ، ودخل الشام (٢) مرتين وحماه فما دونهما وتميز فى الفنون .
حفل عصر الماردينى من جانب المؤرخين باللوم والنقد - وربما النقد الجارح - ان
كان بمثابة اتجاه عام بين علماء ومورخى القرن التاسع الهجرى حتى ان السخاوى قد

(١) السخاوى ، الضؤ اللامع ، م. س. ذ. (ترجمة ٩٤) ص ٣٥ .

(٢) سبقت الاشارة الى انضمام الشام لمصر فى العصر المملوكى ، وقد رحب اهل الشام كما
يجمع مؤرخو القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، والقرنين الثامن والتاسع
الهجريين فى بلاد الشام بانضوائهم تحت حكم المماليك وتفسير ذلك هو الخطران الجسيمان
حيث كان الصليبيون قد سيطروا على اجزاء كثيرة من بلاد الشام ودمر التتار بغداد
واجتاحوا بلاد الشام ، وتأسيسا على ذلك كان محتما ان يدين الشعب للمماليك بالولاء
باعتبارهم القوة الاسلامية التى استطاعت دحر هذين الخطرين ، وبعد طرد الصليبيين نهائيا
من جزيرة ارواد مقابل طرطوس - وهى آخر معاقلهم - سنة ٧٠٢ هـ / ١٢٠٢م لم ينقطع
خطرهم ولذلك بادر المماليك الى فتح جزيرة قبرص سنة ٨٢٩هـ / ١٤٢٦ - أى بعد ولادة سبط
الماردينى - ونفس الامر بالنسبة للتتار حيث عادوا بعد هزيمتهم فى عين جالوت الى بلاد
الشام واحتلوا حلب ودمشق اكثر من مرة طيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وعلى
ذلك فقد كانت دولة المماليك هى الدرع الذى يرد عن المسلمين فى مصر والشام الخطر
الخارجى والواقع ان نظره على مراحل تطور الفكر العربى وصولا الى التاريخ المعاصر تؤكد
حرص مفكرى الشام على تأكيد علاقة الاسلام بالعروبة دينيا ولغة وتاريخا « الباحث »

وراجع : اكرم حسن العلى ، مجع سبق ذكره ، ص ٧٠٥ .

تعرض لأئمة العلم فى القاهرة ومن بينهم ابن خلدون والمقرئى والعينى وابن تفرى
بردى والسيوطى الذى لم يقو على السكوت وسخر قدراته للرد على السخاوى ، فلقد
اعتبر السيوطى استاذة السخاوى ظالما متجنيا حيث ذكر مساوى العلماء والأئمة
والفقهاء وشيوخ الاسلام فى ترجماته لهم فى الضو الامع ، كما وصفه بأنه كان يسخر
ويستهزئ بل يتخيل كثيرا مما ورد عن هؤلاء الأئمة والشيوخ .

وفى هذا السياق لم يسلم سبط الماردىنى من نقد السخاوى (١) ، لكن نقده كان أقل
حده حيث يصف الماردىنى قائلا : « ... كان حسن العشرة والتواضع ، والرغبة فى

(١) يفسر البعض اسباب المرارة الطاغية على كثير من تراجم السخاوى فى معجمه الكبير عدم
توفيقه فى الحصول على اى من وظائف التدريس بالقاهرة ويقائه طالبا زما حتى آخر ايامه
فكتب لنفسه ترجمة ذاتية فى اكثر من ثلاثين صفحة من كتابه الضوء الامع ، فى حين ان
معاصره السيوطى عاش جماعا للوظائف من تدريس ومشىحات حبا فى الصيت والمال فلا
عجب ان يصف السيوطى السخاوى باقذع العبارات ، قائلا : ان السخاوى جاهل متخرق لا
يرعون عند الصواب اذ اثر ، فاذا اشرت الى كذوب احق فالى السخاوى فهو كذاب ، اشر
«بل انه اتهمه بالكفر والجهل ومجافاة العلم ، وليس من العقل ان يقبل الباحث المعاصر كل
هذه التهم التى وجهت من السيوطى الى استاذة وزميله السخاوى « الباحث » - وتجدر
الاشارة بهذه المناسبة لمحمد بن طولون الدمشقى آخر معاصرى ابن اياس من المؤرخين ، وقد
ولد ابن طولون سنة ١٤٧٥هـ بصالحية دمشق وتعلم على شيوخ دمشق وأجازة السيوطى
اجازة بالمكاتبه وقرر ابن طولون فى ترجمته النهائية ان عدد شيوخه بلغ خمسمائة وان العلوم
التى اشتغل بتحصيلها تزيد على اثنين وسبعين علما ، ومنها الحديث والكلام والاصول ،
والنحو والصرف ، والمنطق والطب ، والهندسة ، والمعانى والبديع والحساب والقرائن
والعروض والفلك والميقات واللغة والتاريخ ولذا يعتبر ابن طولون الدمشقى كالسيوطى من حيث
مشايخه وعلومه حتى انه وصف بأنه سيوطى الشام ، وتوفى ابن طولون سنة ١٥٤٥م ويعنى
ذلك انه يعتبر من معاصرى عالمنا سبط الماردىنى وان كان قد وافته المنية - أى ابن طولون -
بعد الماردىنى بما يقرب من تسعة وثلاثين عاما ، راجع : محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون فى
مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، م.ذ.س. ، ص ٧٦ - ٨٠ .

الممازحة ، والنكتة ، والنادرة ، وامتهان نفسه ، وترك التائق فى أمره... » ، وبالرغم من أن السخاوى لم يعجب أحدا من سابقه أو معاصريه فأن ترجمته لسبب الماردىنى وخاصة فيما يتعلق بالثروة العلمية العظيمة والمتعددة الاهداف والفوائد التى تركها لنا جاءت منصفة لهذا العالم الذى كان قابعا فى الظل حتى احتفل به المجلس الاعلى للعلوم بدمشق ، حيث يصف السخاوى سبط الماردىنى بأنه قد اشير اليه بالفضيلة فتصدى للاقراء وانتفع به الفضلاء فى الفرائض والحساب والميقات والعربية ونحوها وممن اخذ عنه النجم بن حجى ، وصار باخره فريدا فى فنونه ، وياشر الرياسة فى اماكن ، بل وتصدر بجامع طولون برغبة نور الدين بن النقاش له عنه وعمل فيه اجلاسا فى صفر سنة تسعة وسبعين ، وكتب فى الميقات مقدمات جمة تزيد على مائتين منها المنصورية ، كانه عملها لجماعة المنصورية ، السر المدوع فى العمل بالربع المقطوع وعمل متنا فى الفرائض سماه كشف الغوامض واختصره فى نحو نصف حجمه ، بل وشرحه ، وشرح فيه كلا من تصانيف اربعة لابن الهائم ، الفصول والتحفة القدسية والمقنع ، وسماه « القول المبدع » ، والالفية المسماه كفاية الحفاظ مع توضيح للالفية ايضا ، وكذا شرح الجعبرية والرحبية والاشفهية ولكنه لم يكمل ، ومنظومة الموقف الحنبلى ، والحوفى ، ورتب مجموع الكلائى مع اختصاره ، والاتيان فيه بزوائد مهمة بوله فى الحساب مقدمة سماها تحفة الاحباب فى الحساب المفتوح واختصرها وشرح فيه من تصانيف ابن الهائم الحاوى ، واللمع فى الجبر والمقابلة ثلاثة شروح على الباسمىنية . وشرح فى النحو والشذور ، والقطر ، والتوضيح ولكنه لم يكمل ، وجرى شرح شواهد من شواهد العينى (١) الى غير ذلك من المهمات ، ونازع فى مسألة الجهر بالتسميع ، وخالف فى ذلك الزين زكريا ، وتنافس معه بسببها ، ولذا انتقده فى

(١) العينى ت ١٤٥١ م ومن مولفاته عقد الجمال فى تاريخ أهل الزمان ، عمدة الغارى فى شرح البخارى .

شرحه للفصول ، ونازع ابن السيد عفيفى الدين فى دعواه تقديم أذان المغرب قبل تمكن الغروب ، وكلم المحتسب بكلمات مناسبة ، كما انه دار بينه وبين ابن عاشر شيخ التربة الاشرفية قايتباى مناقشات وباسمه بعض وظائف الحنابلة .

وعموما فان عصر الماردينى كان يتسم بظواهر عديدة لعل ابرزها المؤلفات الكثيرة فى التاريخ والتراجم والعلوم ، فالى جانب الماردينى يأتى ابن طولون الدمشقى فى فترة معاصرة ولاحقة له مباشرة (١٤٧٥ - ١٥٤٥ م) وعلى سبيل المثال وهو آخر معاصرى ابن اياس من المؤرخين - قدكتب هو الآخر فى الطب والهندسة والحساب والعلوم والفلك والفرائض والميقات والتاريخ والفقه والتصوف ، واجازه مشايخه فى بعض العلوم ، ومؤلفاته واردة فى ترجمته الذاتية وفى غيرها من المراجع التى اوضحت اسهاماته الكثيرة فى مختلف العلوم (١) ، ويرى فريق من الباحثين ان مؤلفات غالبية مؤرخى القرن الخامس عشر الميلادى فى مصر ليست سوى ذبول وتكملات لكتب سبقتها زمنيا بكتاب السخاوى التبر المسبوك فى ذيل الملوك وهو تكملة لكتاب المقرئى (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك) وكتاب ابناء الغمر فى ابناء العمر لابن حجر وهو فى الواقع ذيل لكتاب البداية والنهاية لابن كثير ، وكتاب تاريخ العمر للسيوطى هو تكملة للكتاب السالف الذكر لابن حجر . غير ان عالما الماردينى قد القى الضوء فى مخطوطاته القيمة على العديد من الموضوعات العلمية فى الفلك والرياضيات مما جعله يتصف بصفات المبتكر والمبدع بعيدا عن حب الصيت ومادنا بصدد مناقشة سمات عصر الماردينى ، تجدر الاشارة الى ان مؤلفات هذا العصر - وخاصة التاريخية منها - يميل اسلوبها الى استخدام العامية المنثورة مثل كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر

(١) اسم هذه الترجمة الذاتية ، الفلك المشحون فى احوال محمد بن طولون ، وهى مطبوعة بدار مكتبةالقدس والبدير بدمشق سنة ١٣٤٨ هـ : راجع : محمد مصطفى زيادة ، م.س.ذ. ، ص٧٦ - ٨٠ .

والقاهرة ، لجمال الدين ابن المحاسن بن تفرى بردى ، وكتاب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » لمحمد بن احمد بن اياس .

خاتمة :

حاولت جهدى فى هذا البحث الموجز ان أصف النواحي المختلفة لحياة وعصر العالم العربى سبط الماردىنى وان أحلل مادتها فى تعقيب نقدى على ماجاء من أخبار العلماء والمؤرخين من ثنايا تراجمهم ، والنتيجة التى خرجت بها أن حياة هذا العالم العربى قد حفلت بنتاج علمى يمثل ثروة عظيمة أبطنتها مؤلفاته المخطوطة التى توجب العناية بها لابرازها وللاستعانة بها ، وبالرغم من شدة الخصومة والتحاسد التى يستشفيها الباحث من معاصرى الماردىنى - القرن الخامس عشر الميلادى الا أنه - أى سبط الماردىنى - قد كان أقل علماء القرن الخامس عشر حسداً وغيرة ومع ذلك فقد ظل قابعا بشموخ فى قواميس التراجم لاشهر الرجال ولم يذع صيته رغم ما أوتى به من العلم والكفاءة والمهارة ، فتقدم عصره ، وهو ماينهض دليلاً على وجود فيض من العلماء العرب من بلاد الشام ومصر ممن تركوا أثارا واضحة فى تاريخ العرب وسيطه وحديثه الامر الذى يستلزم الاهتمام من جانب الباحثين متعددى التخصصات Multidisciplined للتنقيب فى ماضى الامة الاسلامية لاخراج كنوز العلماء العرب الدفينة فى دياجير قواميس التراجم لتعم بها الفائدة ويتواصل عطاء الاجيال العربية المتعاقبة ، وتحقيق مثل مخطوطات الماردىنى لتخرج فى صورة صحيحة تليق بها وتحفظ مظاهر الحضارة الاسلامية الامر الذى يحتاج الى تعاون الباحثين بصرف النظر عن جنسياتهم باعتبار ان التراث الاسلامى هو تراث للانسانية كلها .

أسأل الله تعالى العون والتأييد وان يتقبل

عملنا خالصا لوجهه الكريم ..

(٢) أولاب المملوك

كتبه المملوك برد بك
من طبقة المستجدة الاشرافى

مقدمة :

سيظل إحياء التراث الاسلامى من الأعمال الأكاديمية الهامة من جانب المؤرخين والباحثين .

وإلقاء الاضواء على المخطوطات العربية وبعثها من مواتها الى دنيا الأحياء هو - بالمقام الأول - واجب أساسى للعلماء والباحثين من اجل تقديمها فى صورة تتيح للدارسين وطلاب العلم فائدة أوسع ، بالرغم مما يكتنف هذا العمل من جهد ومشقة ، وما يستلزمه من مثابرة وصبر وتدقيق وتوثيق .

والتراث الاسلامى من الأجيال الماضية له مكانته ومنزلته الكبيرة فى عقل ووعى ووجدان الأمة الاسلامية ، وهو مآلوفها ومخزونها الفكرى ، ووعاء ذكرياتها وتاريخها . فيه تجد الأمة جنورها ، وله تهفو ، وفيه تستلهم ، وله تمنح الولاء وتفخر بصفحاته . التراث هو الجذور الفكرية لعقل الأمة ، وهو الروح السارية فى هذا العقل والوجدان والذى سيظل يسهم فى تشكيل الوعى والانتماء إن بالسلب أو بالايجاب .

والمخطوط الذى نعرضه يعتبر سجلا حافلا بأحداث التاريخ المصرى عشية الحكم العثمانى ، وهو من المصادر القليلة التى ترصد واقع المجتمع قبيل القضاء على النولة المملوكية .

ومن نافلة القول أن تاريخ مصر - على مر مراحلها - قد حفل بمصادر تعتبر بحق قمة - وإن أهملها المؤرخون والباحثون - .

ويحمل المخطوط المذكور عنوان : " آداب الملوك " وقد عثرت عليه بالمكتبة العامة باستامبول Top kapi Sarary ، فينتمى الى مجموعة المخطوطات الإسلامية النادرة في هذه المكتبة . وهو دون رقم . وهو مخطوط وحيد ، في حالة جيدة وكتوب بخط واضح . يقع في تسعة عشر صفحة من القطع المتوسط . وتوجد صفحات خالية من الكتابة بالإضافة إلى بعض الصفحات ، ليس بها سوى جملتين او ثلاث ، كما هو واضح في النص . ومع ذلك فإنه لا يخلو من كثير من التعقيدات الخاصة بالنسخ والنقل وقد كتبه (١) الملوك برد بك ، من طبقة المستجدة الملكى الأشرفى . والمؤلف مجهول .

وقد إلتزم الناسخ عبر صفحات المخطوط بخاصية هامة ، وهى الحفاظ على التنسيق طوال صفحاته التسع عشر ، غير أن الناسخ قد نسى أو أغفل وضع التاريخ الهجرى ، والشئ الوحيد الذى ذكره الناسخ فى نهاية المخطوط هو هذه العبارة : «برسم خزانة مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قنصوه الغورى أعز نصره » . وتأسيساً على ذلك تكون هذه المخطوطة من نسخ مطلع القرن السادس عشر الميلادى . وترجع أهمية هذا المخطوط النادر - من وجهة نظرى - الى الفترة الزمنية التى

(١) إزدادت أهمية الكتابة فى عصر الأيوبيين ثم فى عصر المماليك عما كانت عليه فى العصور السابقة حيث أولى السلاطين المماليك عنايتهم للديوان وأناطوا وظائفه الى القضاة والكتاب الكفاء . راجع دكتور عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ، القاهرة بدون تاريخ اصدار ، ص ٢٥ . ويروى القلقشندي (عصر المماليك) ويشرح هنا أهمية أصحاب ديوان الانشاء - أى الكتابة - قائلاً : " ومرتبته فى زماننا أرفع مرتبة ومحل اعظم محل ، إليه تلقى أسرار الملكة وخفاياها ، وبرأيه يستضاء فى مشكلاتها ، وعلى تدبيره يقول فى مهماتها ، وإليه ترد المكاتبات ، وعنه تصدر ، وفى ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة ، ويقوم توقيعها على القصص فى نفوذ الاوامر مقام السلطان ، وجميع ما يعلم عليه السلطان ، ومن جليل وحقير فى مزرتة حتى ما يكتب من ديوان الجيش من المناشير وما يكتب من ديوان الوزارة وديوان الخاص وغيرها " . راجع : القلقشندي ، صبح الاعمشى فى صناعة الانشاء ، جزء (١) ، القاهرة ، نشر وزارة الثقافة والارشاد القومى ، بدون تاريخ إصدار ص ٥٤ ، ٥٦ ، ٩١ ، ١٢٨ .

حكمت فيها مصر من جانب المماليك الجراكسة ، فى عهد السلطان قنصوة الغورى
١٥٠١ - ١٥١٦ م (١)

هذا المخطوط فى الأدب السياسى المصرى يلقى الأضواء حول تفسير ظاهرة
السلطة وتطوراتها خلال مراحل تطور الفكر السياسى الاسلامى الذى شهد فترات من
القوة والضعف غير أنها - أى ظاهرة السلطة - بقيت من حيث النظرية كما هى ، ولم
يخرج فقهاء المسلمين فى تعريفاتهم لظاهرة السلطة عن الفكرة المثالية التى ظهرت بها
فى صدر الاسلام . ومع ذلك فقد حاولوا تطويع الفكر لمختلف الظروف التى عايشوها .
فكان للمسلمين من أهالى البلاد المفتوحة وممن دخلوا فى الاسلام ، إنجازات حضارية
عظيمة أسهمت فى تأصيل الفكر السياسى الاسلامى غير أن الفرصة لم تسنح لذلك
الفكر فى أن يبدع ويجدد فكان تطبيقه بشكل مختلف عما أراده له مفكره وواضعوا
أسسسه ، فعندما سقطت بغداد وتلاشت هيئة الخلافة تدريجيا ظهرت صحوة الاقاليم
الاسلامية ، وقامت الحكومات اللامركزية (٢) وتنافست من أجل الابقاء على الحكومة
الاسلامية ، فكانت محاولات المماليك بالابقاء عليها .

(١) وقد أعقبه طومان باى الثانى ١٥١٦ م - ١٥١٧ م وكان هذا الأخير آخر سلاطين دولة المماليك
الجراكسة ، وتنقسم سلاطين دولة المماليك الى : سلاطين دولة المماليك البحرية وسلاطين دولة المماليك
الجراكسة وتضم الأولى السلطنة المملوكية حتى الناصر محمد ، ثم عصر الناصر محمد ، ثم اولاد
الناصر محمد وتشمل هذه الفترة من ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م - ٧٨٢ هـ / ١٢٨١ م ، ثم أحفاد الناصر ،
وتضم الثانية سلاطين دولة المماليك الجراكسة (١٢٨٢ م - ١٥١٧ م) .

(٢) استمرت مرحلة اللامركزية فى تطور مراحل النظام السياسى الاسلامى - ستة قرون وسيقتها
ثلاثة مراحل ولحقتها مرحلتين : أما الثلاثة مراحل السابقة على مرحلة اللامركزية فهى : المدينة
الدولة ١ هـ / ٦٢٢ م - ١١ هـ / ٦٢٢ م وهى اهم مراحل تاريخ الفكر السياسى الاسلامى حيث حكم
الوحى سلوك المسلمين وحدد لهم قيمهم الجديدة ، أما المرحلة الثانية فهى مرحلة الدولة الامبراطورية
١١ هـ / ٦٢٢ م - ١٢٢ هـ / ٧٥٠ م ، وتشمل عصر الخلفاء الراشدين حيث بدأت الأمة الاسلامية
تواجه مشكلاتها السياسية ، وتوجد الحلول المناسبة لها وذلك بعد انقطاع الوحى وغياب الرسول
- صلى الله عليه وسلم - ، والمرحلة الثالثة هى فترة الدولة العباسية . ثم المرحلة التى تدخل

وفى إطار الجهود المبذولة لإلقاء الضوء على المخططات الملوكية فى هذه الفترة ، فقد اقتضت الأمانة العلمية كباحث أن أتبع مجموعة الوثائق فى العصر الملوكى بالمتحف البريطانى فى لندن ، ومكتبة جامعة كامبردج بانجلترا ، وأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة، ودار الوثائق القومية بالقلعة للوقوف الى أى من المخطوطات يتعلق بالأدب السياسى فى هذه الفترة ، فلم أعثر على أى مخطوط عن الأدب السياسى المصرى فى فترة حكم المماليك ، وإنما توجد وثائق هامة أخرى تلقى الضوء على تاريخ مصر فى عصر المماليك وتصور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، وأهمها وثائق الاستبدال والبيع (١) .

ورغم خطورة الاعتماد على أصل واحد فى التحقيق ، ورغم ما يكتنف العمل فيه من صعوبات ومشاق ، فانتنى رأيت أن الوقت قد حان لإخراج هذا المخطوط الى النور . ذلك أنه يمثل مصدراً خصباً وغنياً بالمعلومات الأولية لعصر المماليك وتفسير ظاهرة السلطة فى مصر فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى ١٥٠١ - ١٥١٦ م . وتجدر الإشارة إلى أن الفموض لا يزال يكتنف المؤلفات التاريخية العربية فى فترة حكم المماليك عموماً ، وخاصة فيما يتعلق بتطور الفكر السياسى وتفسير ظاهرة السلطة والأحوال السياسية .

(= دراسة هذا المخطوط وتليها المرحلة الخامسة التى يطلق عليها مرحلة التفتت وتمتد منذ نهاية القرن الخامس عشر حتى بداية القرن العشرين وتشمل نشأة الدولة العثمانية وطابعها با تحوية سلطة الدولة من ضرب القوى الشيعية وأخيراً تاتى المرحلة الحديثة والمعاصرة التى يطلق عليها المرحلة القومية . راجع فى تفصيل ذلك دكتورة فتحية النبراوى ، دكتور محمد نصر مهنا ، تطور الفكر السياسى فى الاسلام ، الجزء الثانى ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٨٤ ، ص ١٥ - ١٨ .

(١) ومن أمثلتها الوثيقة رقم ٥٩ بتاريخ ٢٠ رجب ٩١٢ هـ ، ووثيقة بيع بتاريخ ٢٥ شوال سنة ٨٧٤ هـ فى دار الوثائق القومية بالقاهرة ، وراجع أيضاً الدكتور محمود عباس حموده ، المدخل الى دراسة الوثائق العربية ، القاهرة ، دار الثقافة ١٩٨٠ ، ص ١٩٨ - ٢١٢ .

الحياة الفكرية والقضاء فى عصر المماليك :

على الرغم من التفكك السياسى والاختلاف المذهبى الذى عانت منه الدولة الاسلاميه برمتها ، فان الحياة الفكرية فى مصر بصفة خاصة ، قد انتعشت إلى حد كبير نتيجة لتنافس الفرق المختلفة والمذاهب المتعددة ، مما نتج عنه ثراء فكرى سياسى متميز شهدته مصر فى العصور الوسطى ، بدليل أن المفكرين المسلمين قد أقاموا مراكز اشعاع فكرى ، وكان للخلفاء والحكام دورهم فى اثراء الحياة الثقافية فى العصور الوسطى ، واهتموا بعلماء المسلمين ، وتنافسوا العواصم الاسلاميه فى القاهرة وبغداد وبور العلم وبور الحكمة لتأصيل الثقافة الاسلاميه ، وصقلها ، ومن ثم كانت النهضة العلمية والثقافية التى اتسمت بها الحياة الفكرية فى العالم الاسلامى وقتئذ .

ومن منظور تاريخى فانه قد أخذ بمبدأ استخدام المماليك ولاة مصر الاسلاميه من الطولونيين الى الاخشيديين ثم الفاطميين - ولما آلت السلطة الى الايوبيين ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م نهجوا نفس السبيل وأكثروا من شراء المماليك الترك ، وبنيت لهم الثكنات بجزيرة الروضة ، واطلق عليهم اسم " المماليك البحرية " . ومنحت لهم الفرصة بعد ذلك فى تولى الحكم فى مصر .

وبعد السلطان قلاوون ٦٧٩ هـ / ١٢٧٩ م من أعظم (١) سلاطين دولة المماليك حيث كون فرقة جديدة من المماليك ، كونها من الارمن والجرمانيين ، وعرفت تلك الطائفة باسم " الجراكسة " . وكانت الغالبية العظمى من المماليك الذين جلبهم الايوبيون وسلاطين المماليك من بعدهم الى مصر تأتى من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز وأسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر ، فكانوا خليطاً من الأتراك والجراكسة

(١) راجع فى تفصيل ذلك : دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، الايوبيون والمماليك فى مصر والشام ، والقاهرة ، دار النهضة المصرية ، ١٩٧٦ ، ص ١٩٢ - ١٩٧ .

والروم والروس والأكراد ، فضلا عن أقلية من مختلف البلاد الأوربية .
والماليك عبارة عن طائفة من الأرقاء المشتركين بالمال ، ثم كثر عددهم وحكموا
مصر ، ووضعوا أيديهم على بلاد أخرى خارج مصر ، واحتفظوا أثناء حكمهم لمصر
بشخصيتهم ولم يختلطو بأى عنصر من سكان مصر .

وقد انقسم الماليك فيما بينهم إلى أحزاب متطاحنة ، غير أن هذا الانقسام
الداخلى لم يؤثر على وحدتهم كطائفة أو مجموعة إزاء العالم الخارجى الذى كانوا
يواجهونه كعصبية واحدة وهذا يفسر قوتهم وانتصاراتهم الحربية فى مواجهة العدو
المشترك .

وكان باب الترقى فى حكومة الماليك مفتوحا أمام من تثبت كفايته فى العمل ،
فيترقى من مملوك بسيط الى أمير حتى يبلغ عرش السلطنة ، ولم يكن السلطان إلا
واحداً من أمراء الماليك قدموه على انفسهم لقوة شخصيته ، ووفرة أنصاره وكثرة
جنده ، وقدرته على التغلب على المنافسين من الطامعين فى العرش ، وبذلك كان مملوك
اليوم هو سلطان الماليك فى الغد .

وقد تعهد السلطان الظاهر بيبرس بإصلاح وتعديل النظام القضائى وفى سنة
٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م ، عين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة وكتب لكل منهم تقليدا ،
واجاز لهم أن يولوا نواباً عنهم فى أنحاء الديار المصرية . وقد امتد اختصاص قاضى
القضاة وقضاة الأقاليم ، وزاد نفوذهم حتى تولى القاضى تقى الدين ابن بنت الأعز
الوزارة بجانب القضاة ، ولما صرف عن الوزارة بقى فى يده سبعة عشر منصباً من
أهمها : قضاة القضاء بالديار المصرية ، خطابه بالجامع الأزهر ، نظر الخزانة ، نظر
الأحباش ، مشيخة الشيوخ ، والتدريس فى عدة مدارس .

وكان للجيش المملوكى ثلاثة قضاة اختصوا بشئون العسكر . وكان كل منهم يعرف
باسم " قاضى العسكر " وكانوا يفصلون فى القضايا الخاصة بالعسكر والمدنيين ،
ويلى قضاة العسكر فى الأهمية مفتوا دار العدل ، وهم أربعة ، يمثلون المذاهب الأربعة

وكانوا لا يفصلون فى خصومات المدنيين والعسكريين ، بل كانوا يفسرون حكم الشرع فيما يسألون فيه من المسائل ، كل على حسب مذهبه .

وكانت جلسات المحاكم فى دولة المماليك تعقد علانية ، ويحضرها من شاء من الناس ، وكانت تنعقد فى المساجد ، وأحيانا فى دور القضاة الخاصة ، إذا لم يكن هناك دور معينة للمحاكم . وإذا جلس القاضى للفصل فى الخصومات ، رتب القضايا بحسب ظهور الخصوم حتى لا يتقدم أحد على الآخر ، لسمو منزلته أو علو مقامه أو ثرائه .

وعموما فقد كان فى مصر فى دولة المماليك نظام قضائى ممتاز ، وعرف القضاة بحسن السيرة وطهارة الذمة ، واحترامهم لمكانتهم وعدم قبولهم للتدخل من جانب أحد فى أعمالهم مهما علا مركزه ، حتى أنهم كثيرا ما كانوا يرفعون استقالاتهم من مناصبهم إذا هددوا فى كرامتهم ، أو اعتدى أحد على استقلالهم ، كما أنهم كانوا لا يقبلون الرشوة ولا الهدية ، ولذلك كانت لهم مكانة اجتماعية مرموقة فى نظر السلاطين والأمراء وجميع طبقات الشعب (١) .

وكان السلطان الظاهر بيبرس أول من تولى النظر فى المظالم من سلاطين المماليك ، وهو الذى أقام لذلك داراً للعدل سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٢م ، وكان يجلس بها للفصل فى القضايا يحيط به قضاة المذاهب الأربعة وكبار موظفيه ، وظلت دار العدل مقراً لمحكمة المظالم التى كانت تعقد برئاسة السلطان قلاوون سنة ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م . وبنى الإيوان واتخذ منه مقراً لهذه المحكمة .

(١) ولعل أوضح الامثلة على ذلك القاضى عبد العزيز المعروف بعز الدين عبد السلام (سلطان العلماء) والقاضى تقي الدين عبد الرحمن الشافعى ابن بنت الأعمز ، الوارد ذكره فى المتن: م. س. ذ. وأيضا على إبراهيم على ، مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

النص مع الضبط والتحقيق

/ فيقول ان الله تعالى انما يعطى المملكة من اصطفاه ورآه اهلا لدعائه . قال الله تعالى « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء (١) وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير » . فينبغي للملك ان يعرف قدر نعمة الله عليه فى الولاية وعظم شره فانها نعمة ان قام بحقها نال من السعادة ما لا نهاية له ولا سعادة بعده علي شرفها ، وعظم قدرها ، وحد خطرهما ما روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « عدل السلطان يوما واحد أفضل من عبادة سنة » . وقال - عليه السلام - : « إذا كان يوم القيامة لا يبقى ظل ولا ملجأ الا ظل الله ، ولا يستظل بظله الا سبعة انا س سلطان عادل فى رعيته » . وهو اول سبعة الذين ذكرهم الله تعالى ، وأقربهم السلطان العادل . قال - عليه السلام - : « والذى نفس محمد بيده انه ليرفع عمل السلطان العادل إلى السماء من العمل مثل عمل حملة الرعية ، وكل صلاة يصلحها تعدل سبعين ألف صلاة » . فإذا كان الأمر كذلك فلا نعمة أجل من إعطاء درجة السلطنة فتكون ساعة من غيره تعدل جميع عمر غيره ، فينبغي للملك الاعتناء بالعدل ليبلغ به الى النعيم ويجتمع به بين الدنيا والدين .

/ قال تعالى :

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان » . فيقال : ان ظهور العدل انما هو من كمال العقل والعادل هو من عدل بين العباد ، وحذر من الجور والفساد . قال موسى - عليه السلام - : « ان الله تعالى لم يخلق شيئاً فى الارض أفضل من العدل ، وهو ميزان الله فى ارضه فمن تعلق به اوصله الى الجنة » .

(١) هكذا الأصل .

/ ان عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - سأل محمد بن كعب . قال له : صف لى العدل . قال : « كل من كان أصغر منك سنا فكن له ابا ، ومن كان أكبر منك فكن له ابنا ، ومن كان مثلك فكن له اخا ، وعاقب كل مجرم على قدر جرمه ، وأياك ان تضرب سوطا لمسلم على حقد منك فأنه يصرك ^(١) الى النار ، فالعدل اول صفات الملوك الواجبة عليهم ، وكذلك العلم والسخاء والحلم والوفاء والرأفة والعقل والشجاعة والاقدام » .

« والثانى ، حسن الخلق ، وإنصاف الضعيف ، ومحبة الرعية ، وإظهار الزعامة والاحتمال والمدارات فى مكانها الرأى والتدبير فى الامور ، وحفظ سر الملوك الأولين التى يعتمد عليها ، والحفص ^(٢) عن الامور التى يعتمدها وتعمل بها . فقد بقيت اثارهم واخبارهم تنزل عليهم فى الخير والشر .

ان اثرنا تدل علينا .. فانظر بعدنا الى الآثار

/ وكل انسان يذكر بما يفعل ، وينسب الى ما كان يعمل ان كان خيرا فخييرا ، وان كان شرا فشيئا . ويقال : ان الاسكندر ركب يوما فى موكب مملكته فقال بعض مقدميه : ان الله أعطاك ملكا عظيما فلو انك تستكثر من النساء فتكثر اولادك فتذكر بهم بعدك . فقال الاسكندر : ليس ذكر الرجال بعدهم بذكر الاولاد ، ولكن بالحسن وعدل السنة ، ورجل غلب رجال الدنيا لا يجوز بغلب النساء .

/ للملك الاعتناء بأمر الدين فقد قالوا : الدين والملك توأمان مثل اخوين ولدا فى بطن واحد فبحب الاسلام ولعزه ^(٣) ، و يجتهد فى إعادة السنة النبوية والسيره المرضية ليحمد عن ذلك طريقه ، ويعظم فى القلوب هيئته . ويجب ان يعلم ان صلاح الناس فى حسن سيره الملوك . قالت الحكماء : طباع الرعية تشبه طباع الملك .

/ قال محمد بن على بن الفضل ^(٤) : ما كنت أعلم ان أمور الرعية تجرى على

(١) هكذا الأصل والأصح : يوصلك - (٢) هكذا الأصل

(٣) هكذا الأصل . (٤) هكذا الأصل

عادة ملوكها حتى رأيت الناس فى أيام الوليد اشتغلوا بعمارة الكروم والبساتين واهتموا ببناء الدور وعمرة القصور . ورأيتهم فى زمن سليمان بن عبد العزيز قد اهتموا بكثرة الأكل والطعام حتى ان الرجل يسأل صاحبه أى لون اصطنعت وما الذى اكلت ، ورأيتهم فى زمن عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - قد اشتغلوا بالعبادة وتفردوا لقراءة القرآن ، وأعمال الخيرات وإعطاء الصدقات ، فينبغى له ان يوزع الأوقات فان الملوك القدماء قسموا النهار أربعة أقسام ، قسم لعبادة الله وطاعته ، وقسم للنظر فى أمور المملكة وإنصاف المظلومين ، وقسم للجلوس مع العلماء والفضلاء وتبدير الامور وسياسة الجمهور ، وقسم للراحة وأخذ الحظوظ من الفرح والسرور والصيد واللعب .

/ وما أشبه ذلك ، ويقال ان بهرام وكور قسم نهاره قسمين وجعله نصفين . ففى النصف الاول كان يقضى جوانج (١) العالم وفى النصف الثانى كان يطلب راحة نفسه . ويقال : انه فى زمانه ما اشتغل يوما بشغل واحد وينبغى للملك ان لا يباشر الحرب بنفسه ، ويحفظ ناموسه ، ولكن كثيرا من الارباح يتعلق بروحه ، وصلاح الرعية فى حياته . ومن الامثال السائرة : الجوهر لا يصارم . وكذلك ينبغى ان لا يجور على نفسه لئلا يجور على غيره ويجب ان يحترس وينام على فراشه غيره كل ليلة كما فعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة الغار . قيل ان بهرام ابن حشروا لما هرب وعسكره خوفا ان يصل قصره وعدوه اليه فقيل له : لا ينبغى للملك ان يهرب لئلا همته جيدة متعلقة بهمته . فقال : لم أهرب الا لأخلص جماعة من اصحابى لانى لو هلكت لهلك بى طائفة من الخلائق ، فينبغى للملك بعهد أحول عماله ورعاياه ، ولا يرضى (٢) لهم بالظلم فانه مسئول عن افعالهم كما سئل عن فعل نفسه . قال الله تعالى : " وانذر عشيرتك الاقربين " قال ازديشر إذا كان الملك عاجزا عن صلاح خواصه ومنعهم عن

(١) هكذا الاصل والمقصود " جوانج "

(٢) هكذا الاصل والاصح " لا يرضى "

الظلم فكيف يقدر على ردهم الى الصلاح . وليس شئ أهيىب فى قلوب العمال والرعية عن سهولة الحجاب . فإذا كان الملك سهل الحجاب لم يكن العمال يجوروا ، وضاعت الرعايا من جور بعضهم على بعض ، ومن سهولة الحجاب . / واجلسك مكان عثمان نى النورين ، وانه يطلب منك مثل حياته ، فاكرمه ، وانزلك مكانه على بن ابى طالب ، ويطلب منك مثل عمله وزهده ، وعدله . فقال : زدنى . قال : نعم . ان الله تعالى جعل لاعدائه نارا اى داراً تعرف بجهنم . ، وانه قد جعلك بواب / تلك ، واعطاك ثلاثة اشياء : بيت المال ، والسيف ، والسوط ، وأمرك ان تمنع الناس من دخول النار بهذه الثلاثة . فمن حاك محتاجا ، ولايمنعه من بيت المال ، ومن خالف امر الله ، فادبه بالسوط . ومن قتل نفسا بغير حق فاقتله بالسيف . فان لم تعمل ماأمرك به فانك تكون الرغيم لاهل النار / يكون للملك اطلاع على سائر الاعمال ولا يكون الملك غافلا ليكون الهيبة عن ناموس المملكة باقية ، وذلك لا يحصل الا بالتيقظ ليستريح من الهموم الحادثة من الغفلة . روى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - انه كتب الى عامله ابن (١) موسى الاشعري .

/ امابعد . فان أسعد العمال من سعدت به رعيته ، واشقاهم من شقيت به رعيته . اياك والتبسط باموال المسلمين . فان رعيته يقتدوا بك ، فانما مثلك مثل دابه ذات مرعى اخضر ، فاكلت وسمنت وكان سمنها هلاكها لانها عند سمنها تذبح وتؤكل . / وهذا كان دأب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فى كتابه الى عماله ، وكذلك سائر الخلفاء - رضى الله عنهم - وينبغى للملك ان يجب لقاء الصلحاء ، والزهاد ، والاتقياء ، ويحترم جنابهم ، ويعظم ثناءهم ويطلب منهم المواعظ كما كانت سائر الخلفاء تفعل . روى ان / شقيق البلخي مر على هارون الرشيد فقال : انت شقيق الزاهد . قال : أنا شقيق ولست بزاهد فقال : اوصينى . فقال : ان الله تعالى اعدك مكان الصدق ، وانه يطلب منك مثل صدقة ، وانه أعطاك موضع عمر القاروق ، ويطلب من الفرق بين الحق

(١) هكذا الأصل وصحتها "ابى موسى الاشعري"

والباطل / اللهم أمتنا على الحق ، وانت راضى (١) عنا يارب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على النبي الامى ، وعلى آله ، وصحبه وسلم .
خاتمة :

أقام الاسلام دولة منذ البداية ، كما أقام نظاما ، وأتت نصوصه وأحكامه بتنظيم لشئون الدين والدنيا . والتراث الاسلامى سيظل يستأثر باهتمام الباحثين فهو جزء من عبقرية الامة الاسلامية ، وأوقات الضعف التى أصابت هذه الأمة ، - والجدل المثار حول العلاقة بين قومية الأمة والاسلام - لا يعنى هذا أن الاسلام عربى فقط ، فالاسلام أعم وأشمل ، ولم يأت للعرب فقط ، فالعرب أقلية بين المسلمين ، ولكنهم أكبر أقلية بينهم . وهناك علاقة خاصة بين الاسلام والعروبة كاللغة والتراث الفكرى .
والنتائج التى استخلصتها من دراسة هذا المخطوط القيم ، من وجهة نظرى ، تكمن فى أن عصر المماليك لا يعتبر شرأ كله بالرغم من أن المماليك غرباء على حضارة المنطقة .

ومن هنا فإن إخراج هذا المصدر الثمين هو انجاز لا بأس به فهو فضلا عن اعتباره النسخة الوحيدة ، فهى أيضا نسخة كاملة ، وواضح أن الناسخ كتبها على نظام الورقة ، وقد كتبت المخطوطة بخط عربى واضح ، وكان لطبيعة تخصص الناسخ - وهو من طبقة المستجدة الملكى الاشرفى - أثر واضح فى ترتيبها .
ومن تحليل نص المخطوط يتضح أن مصر مرت بفترة كانت العقيدة الدينية وحدها هى الصلة بين الحاكم والحكومين ، على حين أن الرابطة القومية كانت مبعث تناقض واختلاف بين الحاكمين من المماليك أنفسهم .

ومن منظور تاريخى ، فقد تم القضاء على الدولة المملوكية فى يناير عام ١٥١٧ م وذلك بهزيمة طومان باى - الذى يتعرض مخطوطنا هنا لسلفه قنصوه الغورى - . وكان طومان باى بذلك آخر سلاطين المماليك الذى هزم على يد السلطان العثمانى

(٢) هكذا الأصل وصحتها " راض "

دخوله القاهرة .

المؤلفات التاريخية التي ظهرت في نهاية العصر المملوكي مثل كتاب " النجوم زاهرة في ملوك مصر والقاهرة " لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، وكتاب " بدائع الزهور في وقائع الدهور " لحمد بن احمد اياس .. هذان الكتابان يمثل أسلوبهما الى استخدام العمومية المنثورة . وبالمثل نلاحظ ذلك في صياغة هذا المخطوط ومن الثابت أن تحقيق مثل هذه المخطوطات والوثائق وضبط أحداثها لتخرج في صورة صحيحة تليق بها وتحفظ مصادر التاريخ والفكر الاسلامي - يحتاج ذلك الى تعاون الباحثين بصرف النظر عن جنسيتهم باعتبار ان التراث الاسلامي هو تراث للانسانية كلها .

خاتمة

حاولت جهدى فى هذه الدراسة استعراض وتحليل جوانب المعر
ثنايا دور التدوين التاريخى والمخطوطات السياسية فى العالم الاسلامى
للمزج بين التاريخ والسياسة وربط العلمين بعضهما بالآخر لما بينهما من
من النواحي من حيث مجال الاهتمام والقضايا التى يعالجها كل منهما .
إن ارتباط منهج عالم التاريخ وعالم السياسة يحتم بالضرورة تعاوننا بينهما تعميقا
للفائدة العلمية وزيادة فى توسيع دائرة البحث العلمى .

وقد ظهر خلال هذه الدراسة ومن ثنايا المخطوطات السياسية خاصة كيف يستخدم
المؤرخ الظواهر السياسية حين يتعدى دوره من مجرد سرد احداث التاريخ الى فهم
وتحليل تلك الاحداث والظواهر السياسية ولا شك من اهم مجالات علم السياسة كذلك
وضحنا كيف يستخدم علم السياسة المنهج التاريخى كواحد من المناهج التى يلجأ إليها
عند دراسته لعلم السياسة أو العلوم السياسية وهذا مما يؤكد الترابط بين علم
السياسة وعلم التاريخ ، والى اى مدى ساهمت المعرفة التاريخية من ثنايا المخطوطات
السياسية التى تم عرضها فى دور الجماهير الاسلامية فى الحياة السياسية .
ومن الثابت أن المناهج التى يستخدمها المؤرخ فى بحثه ودراسته لعلم التاريخ تفيد
عالم السياسة عند دراسته وابحاثه فى مجال تخصصه ، وكذلك تفيد المناهج التى
يتناولها عالم السياسة عالم التاريخ وتثرى تجربته فى بحثه وكتابته .

كذلك تبين من خلال هذه الدراسة تطابق بعض القضايا التى يدرسها المؤرخ وعالم
السياسة ومن اهمها ان الاسلام دائما قد حافظ على إشراقه عبر العصور وكان دين
الأغلبية وان التاريخ كانت صبغته مدنية وان العالم الاسلامى قد انفتح على الأمم
الأخرى مع الحفاظ على خصوصية الحضارة الاسلامية وكيف سارت حركة التاريخ
العربى الاسلامى فى توجهاتها الايجابية لصالح الشعوب الاسلامية .

وتجدر الإشارة أن هذه الدراسة ركزت بصفة اساسية على دور المؤرخين والفقهاء

المسلمين الذين عنوا بتلك القضايا ومن أهمهم ابن خلدون .
ان هذه الدراسة تقدم رؤية عملية لتجربة طويلة اكتسبت خلال العمل العلمى
والدراسات الأكاديمية والتدريس الجامعى عبر سنوات طوال ، نضعها اليوم أمام
الطلاب والباحثين لعلها تقدم فائدة نرجوها وتحقق نفعاً يفيد من اللاحقون كما افدنا
من أسلافنا الذين بذلوا جهوداً مضمّنة اضاعوا لنا بها طريق البحث والمعرفة .
وتتعدد اساليب البحث وتختلف مناهج العلماء الا انها جميعاً تؤدي الى نتيجة
واحدة ، وهى اثراء الفكر الانسانى وتعميق المفاهيم العلمية ، ثم هى من بعد ذلك خطوة
على طريق المعرفة ، ولبنة فى البناء الفكرى للانسان .
إن القيمة الفعلية لآيه دراسة جادة انما تتمثل فى المنهج الذى يتبعه القائلون عليها
وكلما كان الباحث يسير وفق قواعد المنهج الأكاديمى كلما كانت الفائدة أعم وأشمل .

والله نسال العون والتوفيق .